



لا يحتاج الروس والأميركيون إلى مساعدة كي يدركوا أن أي حل سياسي حقيقي في سوريا لا يمكن أن يتمّ بوجود بشار الأسد في منصبه ولا باختزال الانتقال السياسي في «حكومة» تحت رئاسته وإشرافه. وإذا افترضوا أن الأسد يلزمهم «موقتاً» لوضع الصيغة الانتقالية على السكّة، فإنهم يتوهّمون بأنه سيتبّدل ليصبح متعاوناً مع عملية يعرف مسبقاً أن هدفها إزاحتة من الحكم. وإذا تصوروا أنه سيوافق على «إعلان دستوري» ينزع منه صلاحيات أساسية فإنهم واهمون أيضاً، وهو قد لا يرضى برئيس لـ «الحكومة» من بين الأشخاص الذين يجري حالياً استمزاجمهم وتحضيرهم، بل ربما يقبله إذا كان من الذين تختارهم موسكو وتقنعه مع «وزرائه» بلعب اللعبة البروتوكولية، من قسم اليمين أمام الرئيس إلى غير ذلك من طقوس الخصوص... لكن كل هذه الافتراضات، والمعارضة لا تحبّذ مجرد الخوض فيها، لن تعني في حال حدوثها سوى تمثيل من أجل «الصورة»، أما خارج المشهد فسيكون «شبيحة» الأسد هم الوزراء الفعليون.

ثمة حقائق تدحضها أكاذيب في ما يسمى «عملية الانتقال السياسي»، كما تبدو في مقاربتها السرية من خلال المحادثات الأميركيّة- الروسية، أو العلنية في مفاوضات لم تبدأ بعد في جنيف.

فمن هذه الحقائق، مثلاً، أن الانسحاب الروسي الجزئي قدّم إعلامياً على أنه «تغيير» جوهري في موقف موسكو، فقيل إنها استخدمت هذه «وقف العمليات العدائية» لفرملة الزحف العسكري (خطة إيران- الأسد) ولتعزيز فرص التسوية السياسية، لكن موسكو واصلت إنكار انتهاكات النظام للهداة، حتى عند ارتکاب مجردة ضد المدنيين، كما في دير العصافير، وليس في ذلك ما يمهّد لأي حل سلمي.

ومنها أيضاً، أن استعادة مليشيات إيران مدينة تدمر، كما استسقطتها، كان «مسرحية» مكشوفة هدفها جذب بوصلة الأزمة إلى خانة «الإرهاب أولًا» (مع تفجيرات بروكسيل، كلافية) وليس «مفاوضات جنيف بالتزامن مع ضرب الإرهاب»، بدليل أن الأسد باشر استغلال تدمر وما سبقها لمخاطبة روسيا عبر إعلامها ليقول إن عليها طيّ «نصائحها» للاستماع إلى «نصائحه».

من تلك الحقائق أيضاً، استمرار اللاعب الروسي- الأميركي بورقة «مصير الأسد»، فإذا أبدى فلاديمير بوتين استعداداً

للمساومة عليها، فإنه لا يجد استعداداً مماثلاً من الجانب الأميركي، خصوصاً أنه يستخدم الممانعة الإيرانية ليرفع ثمن الصفقة. وحين قال سيرغي رياشكوف إن جون كيري غادر موسكو وهو أكثر تفهماً لوجهة نظر روسيا بعدم طرح «مصير الأسد» في سياق المفاوضات، لم ينف الأميركيون ولم يؤكّدوا. وبعدما قالت «الحياة» إن الروس والأميركيين تفاهموا على «رحيل الأسد إلى دولة ثالثة» تسابق الطرفان إلى النفي. ويبدو أنه كلما كثر الكلام عن الخلاف أو التفاهم على مصيره كلما شعر الأسد بأنه غير مهدّد، خصوصاً إذا بقي الإيرانيون مستبعدين عن المساومة الأميركيـةـ الروسية، فهو يستغلّ هذا الجدل ليعيد تقديم نظامه كما سبق لموسكو أن وصفته بأنه «القوة الوحيدة القادرة على ضرب الإرهاب»، وكذلك ليعيد طرح مفهومه لحلٍ من دون انتقال سياسي.

والواقع أن الروس توصلوا خلال ستة أشهر من التدخل المباشر إلى ما يعักس تعريفهم الإعلامي للنظام، لكن «المصالح» تمنعهم من كشف ما لمسوه ميدانياً، فلولا الإيرانيـينـ لما كانت لدى النظام قوة مقاتلة، وبالتالي فإن رد موسكو على الأسد حين تحدّث عن استعادة السيطرة كاملةً، كان مبنياً على ما عايشوه عن كثب. وقد صار الضباط الروس نظراً لهم السوريـينـ بأنهم مصدومون بالوضع الذي آل إليه الجيش سواء بالنسبة إلى سلوكيات قادته الفعلـينـ أو قتاليـتهـ وأهليـتهـ وكفاءـتهـ فضلاً عن التمييز الفوضوي السائد بين مختلف القطاعـاتـ.

إلى الاستقطابـاتـ التي تمـخـضـ عنها الصراعـ فيـ الأـعـوـامـ الـماـضـيةـ بـرـزـ أـخـيـراـ تـماـيزـ جـديـدـ بـيـنـ «عـسـكـرـ روـسـياـ»ـ (ـالـذـينـ اـنـتـعـشـتـ مـعـنـوـيـاتـهـ بـمـقـدـارـ ماـ ظـهـرـ اـزـدـرـأـهـ لـلـإـيـرـانـيـينـ الـذـينـ يـعـاـمـلـونـهـ بـفـوقـيـةـ)ـ وـ«عـسـكـرـ إـرـانـ»ـ (ـأـكـثـرـ التـصـافـاـنـ بـالـحـلـفـةـ الضـيـقـةـ لـلـنـظـامـ)ـ وـأـكـثـرـ تـشـكـكاـ حـيـالـ نـيـاتـ الـرـوـسـ).ـ بـمـواـزـاـةـ ذـلـكـ،ـ دـعـاـ الـرـوـسـ أـشـخـاصـاـ مـخـتـلـفـيـ الـاتـتـماءـ الطـائـفـيـ وـالـاجـتمـاعـيـ إـلـىـ قـاعـدةـ حـمـيمـيـمـ،ـ وـبـيـنـهـمـ مـسـؤـولـونـ حـكـومـيـونـ،ـ لـتـبـاحـثـ مـعـهـمـ فـيـ تـفـاصـيلـ الـحـلـ السـيـاسـيـ،ـ وـبـطـبـيعـةـ الـحـالـ لـمـ يـرـقـ هـذـاـ النـشـاطـ لـأـوـسـاطـ النـظـامـ وـلـاـ لـلـإـيـرـانـيـينـ،ـ وـتـعـرـضـ بـعـضـ مـنـ دـُـعـوـاـ لـلـمـسـائـلـةـ وـالـتـهـيـيدـ.

وـقـائـعـ كـثـيرـ تـعـرـفـ إـلـيـهاـ الـرـوـسـ لـمـ تـكـنـ مـشـجـعـةـ عـلـىـ الـذـهـابـ أـبـعـدـ فـيـ تـدـخـلـهـ،ـ وـأـهـمـهـ أـنـهـ وـجـدـوـ شـرـيكـاـ أـوـ بـالـأـحـرـ شـرـيكـيـنـ يـرـيدـانـ أـنـ تـلـعـبـ مـوـسـكـوـ لـعـبـهـمـ حـتـىـ لـوـ أـدـىـ ذـلـكـ إـلـىـ تـورـيطـهـاـ،ـ وـوـجـدـوـ «ـدـوـلـةـ»ـ وـ«ـمـؤـسـسـاتـ»ـ طـالـمـاـ حـاجـجـوـاـ الـعـالـمـ بـضـرـورةـ الـحـفـاظـ عـلـيـهـاـ،ـ لـكـنـهـمـ فـوـجـئـوـ بـأـوـضـاعـهـاـ الـمـنـهـارـةـ.

هـذـاـ لـاـ يـعـنيـ أـنـ بوـتـينـ اـقـتنـعـ بـأـنـ الـرهـانـ عـلـىـ الـأـسـدـ غـيرـ مـجـدـ،ـ لـكـنـهـ اـكـتـشـفـ مـخـاطـرـ الـاعـتـمـادـ عـلـىـ حلـ عـسـكـريـ كـانـ يـتـعـجـلـهـ وـأـصـبـحـ الـآنـ مـتـعـجـلـاـ إـنـهـ الـصـرـاعـ سـيـاسـيـ،ـ وـفـيـ الـحـالـيـنـ اـصـطـدـمـ بـالـعـقـدـةـ التـيـ يـتـهـرـبـ مـنـ بـتـهـاـ:ـ مـصـيرـ الـأـسـدـ...ـ هـذـاـ اـسـتـحـقـاقـ لـاـ يـسـتـطـعـ بوـتـينـ أـنـ يـكـسـبـ فـيـهـ مـجـانـاـ،ـ وـعـلـىـ رـغـمـ أـنـهـ مـمـسـكـ بـخـيـوطـ الـأـزـمـةـ وـيـدـيرـهـاـ إـلـاـ أـنـهـ لـاـ يـبـدـوـ قـادـرـاـ عـلـىـ حلـ هـذـهـ الـمـعـضـلـةـ الـتـيـ سـاـهـمـ هـوـ نـفـسـهـ فـيـ تـعـقـيـدـهـاـ،ـ وـبـمـسـاعـدـةـ أـمـيـرـكـيـةـ.

لـعـلـ الـأـسـوـأـ أـنـهـ لـاـ يـسـتـطـعـ ضـمـانـ نـجـاحـ أـيـ عـلـيـةـ سـيـاسـيـةـ،ـ لـأـنـهـ لـاـ يـسـتـطـعـ ضـمـانـ سـلـوكـ الـأـسـدـ،ـ فـوـجـدـ الـإـيـرـانـيـينـ يـسـاعدـ الـأـخـيـرـ عـلـىـ مـقاـوـمـةـ الـضـغـطـ الـرـوـسـيـةـ.ـ لـذـلـكـ تـبـدوـ جـوـلـةـ جـنـيـفـ الـمـقـبـلـةـ فـيـ تـقـرـيرـ مـصـيرـ التـسـوـيـةـ،ـ وـنـظـرـاـ إـلـىـ تـعـذـرـ اـرـتسـامـ إـرـادـةـ دـوـلـيـةـ فـاعـلـةـ،ـ بـدـأـتـ أـطـرـافـ عـرـبـيـةـ وـأـوـرـوبـيـةـ تـتـعـالـمـ مـعـ الـأـزـمـةـ باـعـتـارـهـاـ مـؤـجـلـةـ عـمـلـيـاـ فـيـ اـنـتـظـارـ الإـدـارـةـ الـأـمـيـرـكـيـةـ التـالـيـةـ.

إـذـاـ كـانـ يـعـوزـ الـرـوـسـ أـيـ دـلـيلـ عـلـىـ اـسـتـحـالـةـ التـوـصـلـ إـلـىـ حلـ سـيـاسـيـ معـ الـأـسـدـ،ـ فـمـاـ عـلـيـهـمـ سـوـىـ أـنـ يـنـظـرـوـاـ إـلـىـ الـأـسـبـابـ الـتـيـ جـعـلـتـ قـادـةـ فـيـ الطـائـفـةـ الـعـلـوـيـةـ أـصـدـرـوـاـ «ـوـثـيقـةـ إـصـلاحـ هوـيـاتـيـ»ـ يـفـضـلـوـنـ عدمـ إـعـلـانـ أـسـمـائـهـمـ،ـ لـأـنـهـ فـيـ هـذـهـ اللـحظـةـ لـاـ يـخـشـونـ الـمـعـارـضـةـ،ـ مـعـتـدـلـةـ أـوـ غـيرـ مـعـتـدـلـةـ،ـ مـقـدارـ مـاـ يـخـشـونـ بـطـشـ نـظـامـ يـتـبـرـأـوـنـ مـنـهـ وـيـتـطـلـعـونـ إـلـىـ «ـعـهـدـ اـشـتـراكـ جـديـدـ»ـ يـتـعـاـشـونـ فـيـ مـسـتـقـبـلـاـ مـعـ مـوـاطـنـيـهـمـ جـمـيـعاـ،ـ مـقـرـيـنـ فـيـ الـمـادـةـ 24ـ مـنـ وـثـيقـتـهـمـ بـأـنـ الـعـلـوـيـنـ «ـوـقـدـ أـبـرـأـوـاـ ذـاـكـرـهـمـ الـجـمـاعـيـةـ مـنـ سـيـرـ الـاضـطـهـادـ،ـ فـعـلـيـهـاـ وـرـمـزـيـهـاـ،ـ يـبـارـوـنـ حـيـباـ بـالـحـقـيـقـةـ وـدـونـهـاـ شـرـفـ الـوـجـودـ فـيـ الـحـيـاةـ،ـ إـلـىـ إـبرـاءـ «ـالـسـنـيـةـ السـوـرـيـةـ»ـ مـنـ كـلـ

فعل اقتُرِفَ ضدَّهم يوماً على سبيل الاضطهاد أو العداوَن أو التغريب. فكلَّ ما وقع من ذلك، إنَّ معنوياً أو مادياً، أتته أيدٍ الغربياء الذين مرُوا في الأرض السورية من غزوة وطامعين»....

لا أحد يفهم «السنية السورية» مثلما عرَّفتها «العلوية السورية» في هذه الوثيقة، فبینهما رابط وطني وخط اعتدال ديني يصلان بینهما وبين المسيحيين والدروز وسائر الأديان.

هذا ما منح شعب سوريا فرادة التعبير عن روح التسامح المشرقي، وما ميَّزه دائمًا عن نظامها الذي استخدم سلمية هذا الشعب وتسامحه للإمعان في إخضاعه... خلافاً لوثائق أخرى أصدرتها جماعات علوية خلال أعوام الأزمة، تبدو هذه الوثيقة على رغم تأثير صدورها النص الأكثَر تعبيراً عن المرجعية الدينية، وبالتأكيد الأعمق في مقاربة إشكالية العلاقة مع الآخر السنّي، والأهم أنه الأكثر شجاعة:

أولاًـ في نفي كون العلوبيين من الشيعة، وفي ذلك نأي عن إيران.

وثانياًـ في تمسك العلوبيين بقيم المساواة والحرية والمواطنة، ومناداتهم بالعلمانية (المادة 23) «باعتبارها كالديمقراطية إحدى آليات تشغيل هذه القيم، وباعتبارها فصلاً وظيفياً للدين عن الدولة وليس (فصلاً) جزرياً أو ضدياً».

وثالثاًـ في إعادة تأكيد تمسكهم بـ«توحيد الأقاليم» اعتدالاً بأسلافهم، ما يعني رفضهم للتقسيم شكلاً ومضموناً...

هناك بُعد شاسع بين «سلطة الضمير الجماعي» للعلويين، كما تعكسها هذه الوثيقة، وبين تطرُّف النظام بعلوييه ومن يخدمون وحشيتَه ويغذونها.

كان الحل الأمثل للأزمة والصراع مرتبطاً بوجود ضمير لدى هذا النظام، لكنه كان ولا يزال مفقوداً، ولا يمكن إيقاظه بالاعتماد على الروس والإيرانيين، ولا على أميركاـ أو باما أو إسرائيل.

جميعهم يقولون، ومعهم الأمم المتحدة، إن الحل يصنعه السوريون، وهذا أيضاً من الحقائق/ الأكاذيب، لأنَّ من يديرون الأزمة راهنوا على وحشية النظام بلا جدوى، ويحاولون عبثاً إضعاف المعارضة ولم يفلحوا في تيئيسها.

الحياة اللندنية

المصادر: